

الدين والأنظمة والقوانين

إذا كان للمؤسسات قوانين وأنظمة للمحافظة على كيائها وتطويرها، وللدول دساتير وأنظمة وقوانين للرفي بمجتمعاتها.

فإنّ لله تعالى الأديان التي تضمن سعادة الناس في الدنيا والآخرة إذا التزموا بها لقوله تعالى في سورة النحل: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً} في الدنيا {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ﴿٩٧﴾ في الآخرة، ويفتح الله تعالى لهم بركات السماء والأرض لقوله تعالى في سورة الأعراف: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ...} ﴿٩٦﴾.

وإذا كانت الأنظمة والقوانين متغيرة تبعاً لتغيرات أحوال المجتمع للوصول إلى الأفضل، فشرائع الأديان تغيرت بحسب المراحل التي مرّت بها الإنسانية من آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم.

وما ينسخ الله تعالى ديناً إلا ويأتي بخير منه أو بمثله كما قال تعالى في سورة البقرة: { مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ١٠٦ .

ففسخ الله تعالى شرائع الأديان بدين خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ وجعله مهيمناً على كل شرع ليحكم به بين الناس كما قال تعالى في سورة المائدة: { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ... } ٤٨ .

وحيث أن القوانين والأنظمة تضع جزاءات لتحفيز الملتزمين وردع المخالفين، فلهذا تعالى سنن لتعزيز تمسك المؤمنين بالدين، ولردع المعرضين كما قال تعالى في سورة طه: { ... فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } ١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى } ١٢٤ ولقوله

تعالى في سورة الرعد: { لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ
يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ
أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ } في الدنيا كما أهلك الأمم الكافرة { وَمَأْوَهُمْ
جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } ﴿١٨﴾ في الآخرة.

ولذلك ضمن تعالى لأوليائه الفوز العظيم في الدنيا والآخرة
كما قال تعالى في سورة يونس: { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ } ﴿٦٤﴾ .

وضمن لهم التمكين في الأرض كما قال تعالى في سورة
النور: { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ
لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ

يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾.

ولردع المعرضين عن هدي الله تعالى حذرهم من تسلط
الشياطين عليهم كما قال تعالى في سورة الزخرف: { وَمَنْ يَعِشْ
عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُو شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُو قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ
لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا
قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ }.

وتقول نفقتهم عليهم ثلاث حسرات لصدهم عن سبيل الله
لقوله تعالى في سورة الأنفال: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ
يُغْلَبُونَ ^{قُل} وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ }.

وسیظل المكابرين معرضين عن هدي الله تعالى حتى يقيم
الله تعالى فيهم سننه وجزاءاته كما أقامها فيمن قبلهم كما قال
تعالى في سورة الفجر في قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ

بِعَادٍ ⑥ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ⑦ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ⑧ وَثَمُودَ
الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ⑨ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ⑩ الَّذِينَ طَغَوْا
فِي الْبَلَدِ ⑪ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ⑫ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ
عَذَابٍ ⑬ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ⑭ دائماً وأبداً.

ويرسل عليهم الصواعق لقوله تعالى في سورة الرعد: {وَيُسَبِّحُ
الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} ⑬.

كما وتوعدهم بإنزال القوارع إلى قيام الساعة لقوله تعالى في
سورة الرعد: {...} وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ
أَوْ تَخُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ
الْمِيعَادَ ③١ كالزلازل والأعاصير والجوائح وغير ذلك.

وقد يصيب المؤمنين شيئاً من ذلك ككرونا لغايات منها: -
١- أن تكون شهادة للمؤمنين لما ورد في المستدرك على
الصحيحين أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت

فوجده قد غلب، فصاح به فلم يجبه، فاسترجع رسول الله ﷺ وقال: غلبنا عليك يا أبا الربيع، فصاح النسوة وبكين، فجعل ابن عتيك يُسَكِّتُهُنَّ فقال رسول الله ﷺ: دعهن فإذا وجب فلا تبكين باكية، قالوا: يا رسول الله وما الوجوب؟ قال: إذا مات، فقالت ابنته: والله إني كنت أرجو أن تكون شهيدا فإنك قد كنت قضيت جهازك، فقال رسول الله ﷺ: قد أوقع الله أجره على قدر نيته، وما تعدون الشهادة؟ قالوا: القتل في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله، المطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطلون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيدة.

٢- أو أن يكون بلاءً من الله تعالى لقوله تعالى في سورة البقرة: { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ

قَبْلَكُمْ مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾.

٣- أو ليكون البلاء بشرى وصلوات ورحمة للصابرين لقوله
تعالى في سورة البقرة: { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ } وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾
الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾.

٤- أو لتكفير السيئات لما ورد في صحيح الإمام البخاري عن
أبي سعيد الخدري وعن أبي هريرة - رضي الله عنهما - عن
النبي ﷺ قال: ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب (الوجع) ولا هم (القلق) ولا حزن ولا أذى ولا غم (الكرب)
حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها.

٥- أو ليتبين أولي العزم لقوله تعالى في سورة آل عمران: {
لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ
تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} ١٨٦.

٦- أو أن يكون عقوبة لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر وهم قادرون لما جاء في مسند الإمام أحمد عن حذيفة
بن اليمان رضي عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "والذي نفسي بيده لتأمرن
بالمعروف ولتنتهون عن المنكر أو ليبعثن عليكم قوما وفي
رواية (عقاباً) ثم تدعونه فلا يستجاب لكم".

٧- أو أن يكون عذاباً للخاصة والعامة لما ورد في مسند الإمام
أحمد بن حنبل عن عدي بن عميرة رضي عنه قال: سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة
حتى يروا المنكر بين ظهرائهم وهم قادرون على أن ينكروه
فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة".

٨- أو لنقضهم حدود الله تعالى لما ورد في شعب الإيمان للإمام البيهقي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: "يا معشر المهاجرين خصال خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن، لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولا ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدوهم من غيرهم فأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم".

٩- أو أن يبادرهم الله تعالى بالحرب إن لم ينتهوا عن أكل الربا كما قال تعالى في سورة البقرة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا
فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ
أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾.

فسنن الله تعالى الواردة في القرآن قائمة في البشرية جمعاء ،
كون القرآن ناسخ ومهيمن على كل دين .

فالأديان هي الدساتير الإلهية التي أوحاها تعالى للإنذار
وتبشير الناس بسننه تعالى وجزاءاته، والإسلام هو خاتم
الرسالات والمهيمن عليها، والسنن والجزاءات التي نصّ عليها
الإسلام قائمة في الناس كلّ بحسب نيّته وعمله .

وقد تحقق وعد الله تعالى لهذه الأمّة كما وعدت بني إسرائيل
في قوله تعالى في سورة القصص: { وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ
أَسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ } ﴿٥٠﴾ فبعد أن
كانت أمّة العرب مستضعفة بالنسبة لكل الأمم كالفرس والروم ،

ومن شدة ضعفها أن غزاها أبرهة الحبشي بجيشه من اليمن إلى مكة فلم يتصدى له أحد، فهزمه الله تعالى عند بعثته ﷺ.

وبعد هجرته ﷺ بخمسة عشر عاماً استطاعت هذه الأمة من هزيمة الفرس بنصف الجيش، وهزيمة الروم بكامل الجيش فيما لم يزد عن شهرين من الزمن في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأجلى أهل الكتاب من جزيرة العرب بوصية رسول الله ﷺ في العام السادس عشر الهجري في خلافته رضي الله عنه، ومكّن الله تعالى للمسلمين أن يسيحوا في الأرض فاتحين حتى أوصلوا دين الله تعالى إلى ما نراه، وتحققت نبوته ﷺ بأن دانت لهم العرب وملكوا بها العجم.

وسيدخل الإسلام كل بيت لقوله تعالى في سورة الأنبياء: {...} أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ولقوله تعالى في سورة الرعد: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا

مِنْ أَطْرَافِهَا ۖ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ﴿٤١﴾.

ولبشرى رسول الله ﷺ لما ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل
عن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ليبلغن هذا
الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا
أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزا يعز الله به
الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر"، وكان تميم الداري يقول: قد
عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير
والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصغار
والجزية.

هذا والله أعلم وصلّى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلّم.

فؤاد محمود آل محمود